

أساليب التطبيع من حيث علاقتها بعوامل التغير الاجتماعي و بخصائص الشخصية

اعداد : أمل معروف عواد
أستاذة محاضرة بمعهد علم النفس
و علوم التربية - جامعة الجزائر -

يطيب لي أن أستهل مداخلتني هذه بمقولة لأحد علماء السلوك المعاصرين يوري برونفنبيرنر Uri Bronfenbrenner " إذا ما أتحت الغرض أمام أطفال و شباب أي شعب من الشعوب لنمو طاقتهم و تطويرها الى حدها الأقصى، و اذا ما تمّ تزويدهم بالمعرفة التي تمكنهم من فهم العالم الذي يعيشون فيه و الحكمة في تغييره، كان الأمل كبيرا في مستقبل مضي مشرق، و اذا ما أهمل المجتمع أطفاله، أنهالت الكوارث و عـمّ الخراب و كثر الدمار، رغم النجاحات التي يكون المجتمع قد حققها في المجالات الأخرى"

انها لمقولة جامعة حقا لما يمكن أن يقال حول موضوع التطبيع الاجتماعي و أهميته الكبرى للمجتمع، فهي توضح مسائل أساسية، أولها أن الطفل يولد بامكانات بيولوجية قابلة للنمو و التطور اذا ما تولاها المجتمع بالعناية اللازمة و اذا ما هيا لها الظروف الصالحة للنمو و التطور. و ثانيها أن مستقبل الأمة يتحدد بالظروف التربوية التي تتعرض لها أجيالها الناشئة، و ثالثها ضرورة الاهتمام بمرحلة الطفولة و التركيز عليها لما لها من أثر فعال و حاسم في مراحل الحياة الأخرى. و قد تنبّهت الدول المتقدمة الحديثة لهذه الحقائق و عملت منذ وقت طويل على دراسة الظروف التي تساعد أبناءها على تنمية طاقاتهم و قابليتهم و توجيه شخصياتهم بما يحقق أهداف المجتمع ابتداء من مرحلة الطفولة الأولى.

و لما كان المجتمع الجزائري في هذه المرحلة التاريخية المهمة من حياته يعمل على رسم صورة لحياته في حاضره و مستقبله وفق أهدافه و آماله النابعة من خبرات نضاله البطولي المجيد و من خبرات مسيرة سنوات الاستقلال التي أتسمت بتغيرات اجتماعية و ثقافية جذرية، معتمدا التخطيط الشامل لشرواته و طاقاته المختلفة، فلا بد لهذا التخطيط أن يتسع ليشمل الظروف التربوية التي تتعرض لها أجياله الناشئة لتعبثهم ماديّا و معنويّا من أجل تحقيق مخططاته و أهدافه لوضع دعائم المجتمع الجديد و ملامح شخصية المواطن الجزائري في المستقبل.

و اذا ما أردنا للتخطيط أن يؤتي ثماره فلا بد له من الاعتماد على الدراسات العلمية

في كافة مجالاته . لذلك أحسنا بضرورة البحث من نقطة البداية من حيث يبدأ الوليد بالنمو، إذ يجمع الباحثون في علم النفس على اختلاف أطهرهم النظرية على أن السنوات الأولى من حياة الطفل هي أكثر السنين أهمية في تكوين سلوكه و في تحديد شخصيته . ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى للأسرة ، فهي مجتمع الطفل الأول الذي يعيش فيه و يتفاعل معه و هي التي تنقل إليه جميع المعارف و المهارات و الاتجاهات و القيم و معايير السلوك التي تسود المجتمع بعد أن تترجمها إلى أساليب عملية لتطبيعته الاجتماعي . و قد أثبتت الدراسات الاكلينيكية للأطفال المضطربين و الملاحظات التجريبية على الأطفال العاديين وجود مجموعة من العلاقات السببية بين أساليب التطبيع الاجتماعي التي تستخدمها الأسرة و بين سلوك هؤلاء الأطفال، كما وضحت أن بعض الخصائص الشخصية عند الكبير هي امتداد لخبرات الطفولة المبكرة .

و انطلاقاً من كل ذلك تركزت أهداف الدراسة الحالية بما يأتي :

1 - التعرف على أساليب التطبيع الاجتماعي التي تستخدمها الأمهات الجزائريات مع أطفالهن من الميلاد حتى الخامسة في مواقف الأكل و الطعام و الغطاء و الإخراج و الاستقلال و العدوان . أي كيف تتعامل الأمهات الجزائريات مع أطفالهن في المواقف التي ترتبط بالحاجات البيولوجية و الاجتماعية و الخلقية .

2 - التعرف على العلاقة بين هذه الأساليب و بين مظهرين من مظاهر التغيير الاجتماعي هما التعليم و العمل .

3 - التعرف على العلاقة بين هذه الأساليب و بين بعض خصائص شخصية الطفل كالعدوان و المخاوف و الاستغلال و الطلاقة اللفظية .

و قد تمّ التعرف على أساليب الأمهات في التطبيع الاجتماعي للأطفال اعتماداً على أسلوب المقابلة المدعمة بالاستبيان "المجدولة" . و تمّ التعرف على خصائص شخصية الطفل اعتماداً على اختبار تفهم الموضوع للأطفال " CAT " .

أما عينة الدراسة فقد تكونت من 200 أم و 200 طفل، كل أم و طفلها الذي يبلغ الخامسة من العمر، الأمهات الجزائريات مسلمات يسكن مدينة الجزائر العاصمة ، كلهن أمهات لأطفال في سن الخامسة ، (100) من المتعلّقات و (100) من غير المتعلّقات، و قد تضمنت كل مجموعة (50) من العاملات و (50) من غير العاملات " المتفرغات " أما بالنسبة للأطفال فقد كان جميعهم من الأطفال العاديين (الطبعيين) الخاليين من الأمراض العصبية و العاهات الجسميّة . و قد تمّ استبعاد الأطفال الذين لا يعيش أبائهم معهم بسبب الوفاة أو الطلاق أو الهجرة ، فضلاً عن استبعاد الطفل الوحيد في الأسرة . و بعد الحصول على البيانات المتعلقة بالأمهات و البيانات المتعلقة بالأطفال و معالجتها احصائياً توصلنا إلى النتائج الآتية :

ان هناك أنماطاً عامة في التطبيع الاجتماعي للأطفال تميز الأمهات الجزائريات عن غيرهن من الأمهات في المجتمعات الأخرى، مما يؤكد دور الثقافة العامة للمجتمع في تحديد

أساليب التطبيع، فقد ظهر أن الأمهات الجزائريات يولين اهتماما كبيرا لتربية الأطفال و يعتبرون ذلك وظيفتهن الأساسية . و تبدأ الأمهات بالرضاعة الطبيعية من الثدي و يفضلنها على الرضاعة الصناعية ، و يزود الطفل خلال مرحلة الرضاعة بأنواع متعددة و مختلفة من الأغذية الى جانب الرضاعة من الثدي أو الرضاعة الصناعية . و عندما يحين موعد الفطام يكون مفاجئا أو تدريجيا ، غير أن الفطام المفاجيء أكثر شيوعا من الفطام التدريجي . و تلجأ نسبة ليست قليلة من الأمهات الى الطرق التقليدية في الفطام و التي تقوم على دهان حلمة الثدي بمادة مرّة المذاق كالصبار أو مسحوق القهوة . و تصاحب عملية الفطام اضطرابات كثيرة تواجه فيها الأمهات كثيرا من الصعوبات . و يبدأ التدريب في موقف الإخراج في سن مبكرة و الأمهات متشدات في هذا الموقف من حيث العموم حيث تلجأ الأكثرية الى العقاب البدني و التوبيخ في حالة عدم تمكن الطفل من ضبط عمليات التبرز و التبول ، و قد ظهر أكثر شدة و صرامة بخصوص التبول الليلي . و رغم الابتداء المبكر و الشدة المستخدمة في التدريب إلا أن الأطفال لم يتعودوا ضبط هذه العمليات في سن مبكرة . أما بخصوص أساليب الأمهات في مواقف الاستقلال ، فقد ظهر أن الأمهات الجزائريات يولين اهتماما كبيرا للاستقلال ، فهن يرغبن في اعتماد الطفل على نفسه في سن مبكرة . و يقدمن التدريبات اللازمة التي تساعد على الاستقلال ، و هن عموما يفضلن تعريض أطفالهن للخبرات الاجتماعية التي تعودهم على التعامل مع الآخرين . و هن متساهلات في مواقف العدوان و لا يتفريقن من السلوك العدواني الذي يظهره الطفل داخل الأسرة و خارجها ، و يرين أن من الضروري أن يتعلم الطفل الشجار ليستطيع أن يدافع عن نفسه لذلك فهن غالبا ما يشجعن أطفالهن على ذلك .

أما بخصوص الأساليب الشائعة في تعديل السلوك و تغييره بشكل عام ، فقد ظهر أن أكثر الأساليب شيوعا لدى غالبية الأمهات هو أسلوب العقاب البدني و التوبيخ ، و لا يقتصر هذا الأسلوب الزاجر و القاسي على فئة دون أخرى فقد ظهر لدى المتعلمات و غير المتعلمات و العاملات و غير العاملات ، فهو يبدو لهن ذا تأثير مباشر و ذا مردود سريع ، الأمر الذي يخفي الأضرار النفسية الكامنة في هذه الممارسات .

و رغم وجود هذه الأنماط العامة ، فقد أكدت دراستنا حقيقة أخرى ، هي أن التعليم و العمل يساهمان و بدرجة كبيرة في تحديد أساليب التطبيع التي تستخدمها الأمهات مع الأطفال ، إذ ظهرت أساليب معينة تميز المتعلمات عن غير المتعلمات و تميز العاملات عن غير العاملات في أغلب مواقف التطبيع التي تناولتها الدراسة ، و قد جاءت الفروق دالة احصائيا بالنسبة لما يأتي :

مواقف الاطعام و الفطام :

- الأمهات المتعلمات و العاملات أكثر ميلا الى اطعام الطفل في أوقات معينة بالمقارنة مع غير المتعلمات و غير العاملات اللواتي كثيرا ما يفضلن اطعام الطفل كلما أراد ذلك .

- المتعلمات و العاملات أكثر ميلا الى فطام الأطفال في سن مبكرة ، و أكثر ميلا الى تزويد الطفل بخبرات تناول الأغذية في سن مبكرة بالقياس الى غير المتعلمات و غير

العاملات.

- المتعلّعات و العاملات أكثر ميلا الى استخدام الغطام التدريجي و أقل ميلا الى استخدام الطرق التقليدية في الغطام بالمقارنة مع غير المتعلّعات و غير العاملات.

موقف الاستقلال :

- المتعلّعات و العاملات أكثر ميلا الى تقديم التدريبات التي تساعد الطفل على الاستقلال كما أنهن أكثر ميلا الى الابتداء المبكر في التدريب على الاستقلال بالمقارنة مع غير المتعلّعات و غير العاملات.

- المتعلّعات و العاملات أكثر ميلا الى اثابة سلوك الاستقلال و تعزيزه عن طريق المديح و اظهار الرضا و الحب بالقياس الى غير المتعلّعات و غير العاملات.

موقف العدوان :

المتعلّعات أكثر ميلا الى استخدام النصح و الارشاد حين التعامل مع السلوك العدواني الذي يظهره الطفل داخل الأسرة و خارجها بالمقارنة مع غير المتعلّعات.

و اذا ما توقفنا قليلا عند هذه الفروق الثابتة لنستبين دلالاتها، نجدها تزودنا بمؤشرات واضحة للأبعاد النفسية لعملية التغير الاجتماعي، اذ تجلت فاعلية عاملي التعليم و العمل في ترقية أساليب التطبيع الاجتماعي حيث أشارت ممارسات المتعلّعات و العاملات في مواقف الاطعام و الغطام على سبيل المثال الى وجود الوعي لدى هذه المجموعات بإمكان القيام بعملية الغطام بالطرق غير التقليدية و الوعي بالمضار النفسية و الاضطرابات التي قد تترتب على اتباع مثل هذه الطرق كما تشير من الناحية الأخرى الى وضوح مفهوم التدرج في عملية الغطام لدى هؤلاء الأمهات، فضلا عن توفر المعلومات الخاصة بطرق التغذية السليمة و المتعلقة بأهمية تنوع الغذاء تحقيقا للنمو الصحي السليم. و أشارت ممارساتهن في مواقف الاستقلال الى شدة حرص هؤلاء الأمهات و رغبتهن الأكيدة في تعويد أطفالهن على ترك التواكل و اكتساب عادات الاستقلال التي تساعدنهم في الاعتماد على أنفسهم في سن مبكرة. و قد تجلّى هذا الحرص و ظهرت هذه الرغبة من خلال التدريبات، فضلا عن استمرارهن في تدعيم عادات الاستقلال و تثبيتها عن طريق المصاحبة الايجابية و العاطفية. كلّما أظهر الأطفال سلوكا يشير الى الاستقلال أو يعبر عنه.

و مع كل هذا التميز الذي تأتى عن عاملي التعليم و العمل فقد ظلت ممارسات أخرى بعيدة عن فاعلية هذين العاملين و أصدق ما يمثل ذلك المعاملة التي تلقاها الأطفال في مواقف الاخراج حيث لجأت غالبية الأمهات الى أسلوب الضرب و الوهيج في معالجة الخطأ الذي يقع فيه الطفل بين الحين و الآخر أثناء النهار بالاضافة الى استخدام الأسلوب نفسه في معالجة التبول الليلي، و لم تقتصر الأساليب القاسية و الصارمة في التعامل على فئة دون أخرى انما ظهرت لدى العاملات و المتعلّعات أيضا. كما ظل أسلوب العقاب البدني و اللفظي هو أكثر الأساليب شيوعا في تعديل السلوك أو تغييره و لم يقتصر

على فئة دون أخرى. وقد يكون مرد ذلك الى ضيق الوقت و ظروف العمل التى تكون الأطر الأساسية للبيئة الاجتماعية و النفسية المحيطة بالأم المتعلمة و العاملة، و من هنا تنشأ الضرورة الى ايلاء البيئة الاجتماعية المتغيرة و ظروف العمل الأهمية اللازمة من الرعاية و البحث لكي تتحقق أبعاد عاملي التعليم و العمل في ترقية أساليب التطبيع الاجتماعي الى مستوى القيام بدور التكوين النفسي المنشط في التغير الاجتماعي اذ أن عاملي التعليم و العمل لا يتجلبان تجليا نشيطا و فاعلا الا اذا توفرت لهما فرص الفعل و التأثير ليتحوला الى مرتكزات صلبة في تكوين مقومات الانسان البناء و الأكثر حممة بالمجتمع.

أما بخصوص العلاقة بين أساليب التطبيع الاجتماعي التى يتعرض لها الأطفال و بين بعض خصائصهم الشخصية فقد وضحت المعالجة الاحصائية للنتائج ما يأتي :

- ان هناك علاقة دالة بين أساليب التطبيع الاجتماعي في مواقف الاطعام و الفطام و بين جميع خصائص الشخصية التى تناولتها الدراسة حيث قاد الفطام المتأخر الى زيادة العدوان و زيادة المخاوف من جهة و الى نقص الاستقلال و انخفاض الطلاقة اللفظية من جهة أخرى.

و أدت الأساليب القاسية في الفطام و التى تقوم على الفطام المفاجيء و دهان حلقة الثدي بمادة مرّة المذاق الى زيادة العدوان و زيادة المخاوف و الى ضعف الطلاقة اللفظية عند الأطفال.

اننا نرى أن تضافر العوامل الثلاثة، الفطام المتأخر و المفاجيء و التقليدي قد أدى الى اضطرابات انفعالية شديدة لدى الأطفال قادت الى زيادة المخاوف و زيادة العدوان من جهة و الى نقص الاستقلال و انخفاض الطلاقة اللفظية من جهة أخرى.

- ان هناك علاقة دالة احصائيا بين أساليب المعاملة التى يتلقاها الأطفال في مواقف الاخراج و بين خصائصهم الشخصية اذ أدت الأساليب التى تقوم على العقاب البدني و التوبيخ الى زيادة العدوان و زيادة المخاوف كما أدت الى نقص الاستقلال و انخفاض الطلاقة اللفظية.

كما أدى استخدام الأساليب القاسية و الصارمة في التعامل مع الأطفال في مواقف الاخراج الى التأخر النسبي في التعود على ضبط عمليات الاخراج و التحكم فيها أثناء النهار و الى استمرار التبول الليلي.

- ان هناك علاقة دالة احصائيا بين سن ابتداء التدريب على الاستقلال و سمة الاستقلال من جهة و الطلاقة اللفظية من جهة أخرى، اذ أدى الابتداء المبكر في التدريب على الاستقلال الى زيادة الاستقلال عند الأطفال و الى ارتفاع طاقاتهم اللفظية. و ارتبط استخدام الجزاءات الايجابية و العاطفية بزيادة الاستقلال عند الأطفال و بارتفاع طاقاتهم اللفظية.

و نرى أن تضايف العديد من العوامل قد أسهم في زيادة الاستقلال عند الأطفال و في نمو و تطور طلائعهم اللفظية، أولها رغبة الأم في استقلال طفلها و ثانيها تقديم التدريبات الضرورية لممارسة الاستقلال و ثالثها الابتداء المبكر نسبيا في هذه التدريبات و رابعها الجزاءات الايجابية و العاطفية التي كانت تصاحب سلوك الاستقلال و تدعمه .

- ان هناك علاقة دالة بين أساليب ضبط العدوان داخل الأسرة و خارجها و سمة العدوان، حيث ازداد عدد الأطفال الأكثر عدوانا في فئة الأسلوب الذي يقوم على الضرب و التوبيخ و قلّ عددهم في فئة الأسلوب الذي يقوم على النصح و الارشاد، و تشير هذه العلاقة الى احتمال زيادة العدوان حين استخدام أسلوب الضرب و التوبيخ في معالجة السلوك العدواني أو في ضبطه بالمقارنة مع أسلوب النصح و الارشاد.

و انطلاقا من كل هذه النتائج يمكننا أن نخرج بالاستنتاجات الآتية :

دل البحث على أن الأمهات الجزائريات بحاجة الى الاستزادة من المعارف و المعلومات الأساسية الخاصة بتربية الأطفال خصوصا غير المتعلمات و غير العاملات لذلك ينبغي تعميم الوسائل التي تعالج الطرق التربوية السليمة و تبين المضار التي تترتب على استخدام الأساليب الشائعة و التقليدية في تربية الأطفال. و من أهم هذه الأساليب الضارة هو أسلوب العقاب البدني و اللفظي في معالجة السلوك و تغييره حيث يجب على الأمهات الاقلاع كلية عن هذا الأسلوب فهو لا يؤدي الى اقتلاع السلوك غير المرغوب بل على العكس قد يثبت، كما قد يقود من الناحية الأخرى الى تزويد الطفل بنماذج من السلوك العدواني يتعلمها الطفل عن طريق الملاحظة و التقليد و يلجأ اليها حين التعامل مع الآخرين، فضلا عما تقود اليه القسوة في المعاملة من اضطرابات لا حصر لها، فلابد و الحال هذه من القيام بعملية توعية نفسانية للأمهات بجدوى و ضرورة أسلوب الاقتناع و الترشيح أساسا في التطبيع الاجتماعي للطفل في الأسرة و في المجتمع.

و من الأساليب الضارة الأخرى التي لها كبير الأثر في زيادة الاضطرابات الانفعالية عند الأطفال هو الغطام المفاجيء و الغطام التقليدي الذي يقوم على دهان حلمة الثدي بمادة مرة المذاق، اذ قد تبدو هذه الأساليب القاسية المؤلمة ذات تأثير مباشر و مردود سريع، غير أنها تؤدي الى زيادة الاحباط الذي قد يؤدي الى زيادة العدوان و زيادة المخاوف و الى نقص الاستقلال و انخفاض الطلاقة اللفظية. كما أن استخدام الأساليب القسرية و الصارمة في التعامل مع الطفل في مواقف الاخراج لا يؤدي الى تعود الطفل على ضبط عمليات التبرز و التبول أثناء النهار و لا يعود على ضبط عملية التبول الليلي و التحكم فيها، بل قد يزيد الحالة سوءا و يعمل على تثبيت السلوك الخاطئ و الاستمرار فيه، كما أنه قد يؤدي من الناحية الأخرى الى زيادة المخاوف و زيادة العدوان و الى ضعف الطلاقة اللفظية و نقص الاستقلال. لذلك يجب أن تعمل الأم على أن تجنب طفلها التعرض للاضطرابات الانفعالية و مواقف الصراع و الاحباط و أن تعمل على توفير الظروف المناسبة التي تشجع الطفل على السلوك الايجابي و تدعمه عن طريق تقديم الجزاءات الايجابية و العاطفية كلما أظهر سلوكا مرغوبا فيه، و أن تعمل على تقديم التدريبات اللازمة و الضرورية التي تساعد الطفل على تعلم و اكتساب العادات الجديدة و تثبيتها .